

## الحلقة (٨)

وقفنا في اللقاء السابق عند قول الله عز وجل ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ وبيننا أن جمهور العلماء يرى أن التطهر يكون بالماء أي إذا تطهرن هن بالماء.

### ❁ بعض المفردات التي في الآية:

❁ قوله تعالى ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فجامعوهن وهو أمر إباحة، يعني له نظائر كقول الله عز وجل ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وكقوله تعالى ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

و"من" في قوله تعالى ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ "من" الجارة بمعنى في، أي: في حيث أمركم الله تعالى وهو القبل، يعني حقيقة لعل أحداً يجد قولاً منسوباً إلى الإمام مالك أو إلى ابن عمر رضي الله عنهما من أن هناك لفظة رويت أنهما أو أن ابن عمر رضي الله عنهما أباح إتيان النساء في أدبارهن، وفي واقع الأمر الذي عليه المحققون من العلماء أن هذا القول مردود بإجماع المسلمين.

أولاً في نسبة القول كما يقول ابن عطية: النسبة غير قائمة إطلاقاً، ثم أيضاً الأمر غير مقبول، لماذا؟ لأن الأحاديث الحسان وهي إن شاء الله صحاح دالة على أن من أتى امرأة في دبرها فهو ملعون، فقال النبي ﷺ في صحيح ابن حبان: (ملعون من أتى امرأة في دبرها)، والرسول ﷺ في الأحاديث الأخرى في السنن: (من أتى امرأة في دبرها أو أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد) وهذا الشيء مستقذر، ولا يفعله إلا الشذاذ.

❁ قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: اختلف فيه فقيل: التوابون من الذنوب والشرك، والمتطهرون أي بالماء من الجنابة والأحداث.

وعلى كل الآية تدل بعمومها على أن الله عز وجل يحب التوابين الرجاعين، ويحب المتطهرين الذين يتزهدون عن الأقدار الحسية والمعنوية، قال الله عز وجل في ذكر مسجد قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ فالله عز وجل يحب التوابين ويحب المتطهرين.

ننتقل بعد ولا زال السياق ماشياً مع الحياة الزوجية داخل البيت بين الرجل وزوجه، فهناك الآيات التي تحدثنا عنها قبل قليل ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ وبعد يطهرن ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ إن فعلتم ذلك ف﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فالرجل مع أهله وزوجته الآن طهرت واستعدت، فتأتي الآية الأخرى وهي:

❁ قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٣)

فلاحظوا أن الآيات تسير سيراً وثيداً متتداً لأن فيها ومنها يؤخذ الأحكام الشرعية في بناء الأسرة المسلمة.

في واقع الأمر كما يقول الرماني والباقلاني، وكما يقول كثير من العلماء الذين وقفوا على هذه الآية وقفة دقيقة بلاغية بيانية، تبينوا من خلالها أن القرآن الكريم، وهو الذي يربي النفوس على الطهر وعلى الصفاء وعلى النقاء، أن هذه الآية كُنَّت بتكنية رائعة جليلة كعادة القرآن، فالقرآن دائماً فيما يُستحيا من ذكره يعرضه عرضاً خفيفاً دونما تفصيل، فقول الله عز وجل: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّامِ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ﴾

انظروا إلى ما حوته هذه الآية من المعاني الرائعة الشائقة الماتعة، من أن المرأة لباسٌ للرجل والرجل لباسٌ للمرأة، ولم يُخْض القرآن الكريم في أمور جزئية معهودة في الذهن، بل اقتصر على ذكر واف شاف كاف، فإذا كان الأمر كذلك فإذا القرآن مما يستحيا من ذكره دائماً يشير إشارات، هذه الإشارات تفهمها الناس وهي معهودة في الذهن.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والجاحظ في كتابه نظم القرآن ذكر أن هذه الآية حوت البلاغة كلها.

### ❁ سبب نزول الآية:

عن جابر رضي الله عنه قال: (كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول، فنزلت الآية ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾) إذا لاحظوا سبب نزول الآية -وهذا الحديث في الصحيح- وأيضا حديث أنس (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) من اليهود فلاحظوا أن السببين جاء في أمر كانت اليهود تفعله، فجاء الإسلام وهو الشريعة المهيمنة والناسخة جاءت مخالفة لما عليه أولئك، فجاء في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ والحديث عند مسلم وأحمد أنهم كانوا إذا حاضت المرأة لم يجامعوها ولم يؤاكلوها، وهذا موجود في كتابهم التوراة وما ضمن الآن بين الإنجيل والتوراة الكتاب المقدس والذي يسمونه ذ هولي بوكس، هذا الكتاب موجود فيه هذا الكلام، ولعله قديما في سفر الخلق والتكوين.

إذا جاء القرآن مناهضاً مناقضاً ومغايراً لما عليه أولئك، فهنا كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول، ونحن نعلم يقيناً أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقت هجرته إلى المدينة النبوية وجد هناك اليهود أو بعض اليهود موجودين ومن العرب وهم قلة، لأن اليهود بطبعهم لا

يسمحون لأحد أن يتدين بدينهم، فالحالة الاجتماعية كانت مفتوحة حتى متصورة في زماننا، فتجد دولة غير مسلمة وفيها مسلمون لكن الحياة الاجتماعية تجمع الجميع.

اليهود كانوا موجودين في المدينة وكانوا يتعايشون مع العرب، ولا سيما الأوس والخزرج، ومن عجب أن اليهودي بدهاء كان يداين العربي، فإذا دأبته مثلاً وحل وقت الوفاء بالدين يذهب إليه العربي طالباً وفاء الدين، فيقول اليهودي ويريد أن يأكل مال هذا الانسان: (لقد أظلل وقت خروج النبي سنبيدكم وسنقتلكم قتل عاد وإرم) طيب ما علاقة هذا بظهور النبي؟ أين الدريهمات؟ هو استغلال الظروف المحيطة في تحقيق أغراض شخصية ذاتية.

فجاء القرآن وخالف مقولة اليهود وكذبهم، بل العكس على الرجل إذا أراد أن يراجع زوجته ويأتيها، سواء كانت مقبلة أو مدبرة أم على جنب كيفما يشاء، وأن يتقي الدبر وانتهدت المسألة، ولكنهم هم يريدون أن يعطوا نوع من الأستاذية للأوس والخزرج وليست بصحيحة لا شرعاً ولا عقلاً ولا واقعاً.

ما علاقة أن يكون الولد أحول بإتيان أمه على أي هيئة كانت؟ والقرآن لا يجامل أحداً، وهذه المقولة مردودة غير مقبولة، وعلينا معشر المسلمين أن نكون قرآنيين في أفعالنا وسلوكياتنا وأعمالنا، فالقرآن الآن في سبب نزول الآية، والسبب في الصحيح، ما جاء القرآن وفتح جبهة مع المخالفين، لم يقل (ما قالته اليهود كذباً) أبداً عبارته وجيزة وافية بالمعنى، والخصم كما يقال: الحاذق عليه أن يفهم، إذاً علينا دائماً أن نكون متمثلين بالقرآن الكريم متمسكين به في سلوكياتنا، وأن لا نفتتح أموراً لا نقوى على إغلاقها، وهذا هو القرآن الكريم في أموره وتشريعاته وإرشاداته وهداياته وعبادته وعقائده وسطاً في كل شيء.

### ❁ مفردات الآيات:

❁ قوله تعالى ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾: الحَرْث الإثارة والتفتيش، ومنه حرث الأرض وهو إثارتها، ووجه تسمية المرأة حرثاً: يقول السمين الحلبي في كتابه عمدة الحفاظ - وله كتاب الدر المصون في التفسير وهو في جانب الإعراب وهو كتاب فائق - فكتاب عمدة الحفاظ إلى أشرف الألفاظ جاء على غرار المفردات للراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، الذي يُبين المعنى المادي للفظ والمعنى المعنوي لها، والسمين الحلبي متأخر وفاة عن الراغب لقرنين وأزيد، فيقول الحلبي (ما حكمة تشبيه المرأة بالحرث؟ يقول: سماهن حرثاً على الاستعارة البليغة، فإنهن بمنزلة الأرض المراد منها طلوع البذر ونموه، وجعل النطف الملقاة من أصلاب الرجال في أرحامهن بمنزلة البذر، وهذا في غاية الفصاحة والبلاغة) هذا كلام السمين الحلبي في كتابه عمدة الحفاظ.

### ❁ الأحكام التي تؤخذ من الآية:

❁ قوله تعالى: ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَىٰ شَيْئِكُمْ ﴾ { أَلَى } اختلف في معنى { أَلَى } ، فقيل: كيف يعني بناء على هذا القول (فأتوا حرثكم كيف شئتم) مستلقيات أو مدبرات أو مقبلات أو مضطجعات الخ.

وقيل: (حيث) يعني { أَنَّى } هنا بمعنى حيث على معنى (فأتوا حرثكم حيث شئتم).  
وقيل: متى على معنى (فأتوا حرثكم متى شئتم) في الليل أو النهار أو ما لم يصادف وقت عبادة كالصيام مثلاً.

إذاً اختلف في معنى { أَنَّى } فقليل (كيف) وقليل (حيث) الظرفية وقليل (متى) الزمانية الظرفية،  
فبحسب هذا الاختلاف جاء الاختلاف في تأويل الآية.

حقيقة كما يقول بعض العلماء الآية في نهايتها تدل على أن من لم يأت زوجته من القبل أو في القبل  
يعد عاصياً أخذاً من قوله تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ يعني اتقوا الله عز وجل في أن تأتوا هنا أو هناك ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ المتقين، وظاهر أن التذييل يجعل البشرى للمؤمنين مراد  
منه أن الإنسان يجب عليه أن يتقيد بالآداب الشرعية.

**ومعنى الآية:** أيها المسلمون أيها المؤمنون زوجاتكم حلال لكم في إتيانهن على أي وضع مناسب  
واتقوا الدبر، والهيئات كلها جائزة إذا كان الوطء في موضع الحرث، وقدموا ما ينفعكم غداً من  
الطاعة والعمل الصالح، وأيقنوا أنكم ملاقوا ربكم فهو مجازيكم على البر والإثم والمؤمنون لهم  
البشرى.

إذاً هاتان آيتان دقيقتان مرشدتان في مسائل خاصة جداً تتعلق بين الرجل وزوجه أو لاهما نهي عن  
أن يأتي الرجل امرأته في زمن مخصوص في مكان مخصوص، فإذا طهرت المرأة جاز له أن يأتيها على أي  
هيئة كانت، إن كانت مقبلة أو مدبرة على نحو ما ذكرنا فهذه أولاهما.  
أخراهما نساؤكم حرث لكم، ومن يعلم بالحرث يعلم ونحن نعلم على أن الفلاح الزراع عندما يأتي  
فيضع البذرة في باطن الأرض وينتظر ما يأتي به الله عز وجل من النتاج ولا شك أنها عملية جد  
عسيرة، فهذا البذر هو مشبه به العلاقة الخاصة بين الرجل وزوجه، فهي حرث له ومزدرع له (محل  
الفرج مزدرع للرجل) فالرجل هو الحارث والمرأة هي الأرض، وما يلقي في الأرحام هو البذر.  
فإذاً هاتان الآيتان كلتاها دالتان على تشريع عظيم لم تعرفه البشرية قبلاً، وباستعراض ما قاله من  
كان قبل الإسلام يتبين لنا عظمة هذا الدين في جانبيه التشريعي والتعبدية، فالحمد لله على هذه  
الشرعية السمحة الغراء، التي من خلالها عشنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، ولعل حديثاً عن النساء  
من خلال هذه الآيات الكريمات من السورة المدنية الكريمة البقرة يتجدد بعد أن يأتينا مشهد  
جديد، يتراءى للرأي للوهلة الأولى أنه جديد وما هو مجيد، بل إنه متسق ومتفق كمال الاتساق  
وتمام الاتفاق مع هاتين الآيتين، أو إن شئتم قولوا مع تلك الآيات التي مبدؤها قول الله عز وجل: ﴿ **وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ** ﴾ وحتى المنتهى عند قول الله عز  
وجل: ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا**  
**أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

سيأتينا الحديث عن مسألة أيضاً تكثر داخل الحياة الأسرية، وهذا الشيء هو الحلف، والحلف له ما قبله وما بعده، ما قبله الآيات التي معنا الآن، وما بعده سيأتينا بعض الآيات التي لها علاقة بالحلف، تلك الآية هي قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ولعل لنا بإذنه سبحانه وتعالى مع هذه الآية لقاءً موسعاً إن شاء الله تعالى.